المجلة التاريخية المصرية ٥٠ (٢٠١٦)، ٧ ـ ٣٢

الجـامِعُ الأَزْهَـر
تــارِيخُهُ وتَطَـــوُّرُه

أيمن فـؤاد سيِّد

الجامِعُ الأَزْهَرُ أَوَّلُ جامِعٍ أُسِّسَ بمدينةِ القاهِرَةِ الفاطِمِيَّة، بَناهُ القائِدُ الفاطِمِيُّ جَوْهَرُ الصَّقْلَبِيّ، وبَدأَت أَعْمالُ البِناءِ فيه يوم السبت ٢٨ جُمادَى الأُولَى سنة ٣٥٩هـ/ أبريل سنة ٩٧٠م، وافْتُتِحَ للصَّلاةِ يومَ الجُمُعَةِ السَّابِع من رَمَضان سنةَ ٣٦١هـ/ يوليو سنة ٩٧٢م[1].

---

(١) راجع عن الجامع تاريخه وعمارته، المقريزي: المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار، قابله بأصوله وأعَدَّه للنشر أيمن فؤاد سيد، لندن ـ مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي ٢٠١٣م، ٤: ٩١ ـ ١٠٧؛ علي مبارك: الخطط التوفيقية الجديدة، القاهرة ـ دار الكتب المصرية ١٩٦٩م، ٢: ٢٥٥ ـ ٢٥٨ و٤: ٢٩ ـ ٩٢؛ محمد عبد العزيز مرزوق: مساجد القاهرة قبل عصر المماليك، القاهرة ١٩٤٣م، ٥٣ ـ ٦٦؛ حسن عبد الوهاب: تاريخ المساجد الأثرية، القاهرة ـ دار الكتب المصرية ١٩٤٦ و٢٠١٠م، ٤٧ ـ ٦٣؛ أحمد فكري: مساجد القاهرة ومدارسها، القاهرة ـ دار المعارف ١٩٦٦م، ١: ٤١ ـ ٥٩؛ محمد عبد الله عنان: تاريخ الجامع الأزهر، القاهرة ـ مكتبة الخانجي ١٩٥٨م؛ محمد عبد العزيز الشناوي: الأزهر جامع وجامعة، القاهرة ـ مكتبة الأنجلو ١٩٨٣م؛ وانظر كذلك الأزهر تاريخه وتطوره، القاهرة ـ وزارة الأوقاف ١٣٨٣هـ/ ١٩٦٤م؛ أحمد حسن الباقوري: «الأزهر في خدمة الإسلام بين الخليفة المعز والرئيس جمال عبد الناصر»، أبحاث الندوة العالمية لتاريخ القاهرة، القاهرة ـ دار الكتب المصرية ١٩٧١ م، ١: ٧١ ـ ١١٣؛ عبد العزيز محمد الشناوي: «دور الأزهر في الحفاظ على الطابع العربي لمصر إبان الحكم العثماني»، المرجع السابق ٢: ٦٦٥ ـ ٧١٥؛ محمد البهي: «حاضر الأزهر بعد أمسه»، المرجع السابق ٣: ٩٩٩ ـ ١٠٢٢، وحياتي في رحاب الأزهر، القاهرة ١٩٨٣م؛ L. HAUTCOEUR, *Les mosquées du*

وكان يُوجَدُ بدائرِ القُبَّةِ التي في الرِّواقِ الأوَّلِ للجامِع على يَمْنَةِ المِحْرابِ والمِنْبَرِ نَصٌّ إنشائيٌّ ، فُقِدَ الآن ورآهُ المَقريزِيُّ في القرنِ التَّاسعِ الهجريِّ/الخامِس عَشَر الميلاديّ ، جاءَ فيه :

«مِمَّا أَمَرَ بِبنائِه عبدُ اللهِ ووَلِيُّه أبُو تَمِيم مَعَدّ الإمامِ المُعزِّ لدِينِ اللهِ أمِيرِ المُؤمِنِين ، صَلَواتُ اللهِ عليه وعلى آبائِه وأبْنائِه الأكْرَمِينَ ، على يَدِ عَبْدِه جَوْهَرِ الكاتِبِ الصَّقْلَبِيِّ ، وذلك في سَنَةِ ستِّين وثلاثِ مائة»[1] .

وعُرِفَ هذا الجامِعُ ـ على الأقَلِّ حتى العَقْدِ الأوَّلِ من القَرْنِ الخامِسِ الهجريِّ/ الحادي عَشَر الميلاديِّ ـ بـ «جامِع القاهِرَة» ، هكذا يذكرُه ابنُ زُولاق والمُسَبِّحِيّ في حَوْلِيَّاتِهما كما يُورِدُها نَقْلًا عنهما المَقْريزيُّ ومُعاصِرُوه[2] ، ولم يَتَبَدَّل اسْمُه إلى قُرْبِ نهايةِ عَهْدِ الإمام الحاكِم بأمْرِ اللهِ (٣٨٦ ـ ٤١١هـ/٩٩٦ ـ ١٠٢١م) بعدَ الانْتِهاءِ من بِناء «جامِع الخُطْبَةِ» خارِج بابِ الفُتُوح الأوَّل ، وهو الجامِعُ الذي بدَأَه

Caire, Paris 1932, pp.218 - 20 ; K.A.C. CRESWELL, *MAE* I, pp. 36 - 64, 254 - 57; J. JOMIER, *EI*[2] art. *al-Azhar* I, pp.837 - 44; N. RABBAT, «Al - Azhar Mosque: An Architectural Chronicle of Cairos History», *Muqarnas* 13 (1996), pp.45 - 67; JACOB SKOVFGAARD - PETERSEN, *EI*[3] art. *al-Azhar* (2007), III, pp.185-88؛ عبد الشافي محمد عبد اللطيف : «الأزهـر»، موسوعة التاريخ الإسلامي ، القاهرة ـ وزارة الأوقاف ٢٠١٥ م ، ١: ١٠٦ ـ ١٢٣؛ محمد علي حلة : الأزهر في الأرشيف المصري ـ وثائق من القرنين التاسع عشر والعشرين ، القاهرة ـ دار الكتب المصرية ٢٠١٥ م ؛ وأصْدَرَ مركز دراسات الحضارة الإسلامية والفكر الإسلامي المعاصر بمكتبة الإسكندرية مؤخَّرًا كتابًا في جزءين بعنوان : الجامع الأزْهَر الشَّريف، الإسكندرية ٢٠١٥ م.

(١) المقريزي : المواعظ والاعتبار ٤: ٩١.

(٢) المسبحي : الجزء الأربعون من أخبار مصر (القسم التاريخي) ، قابله بأصوله وأعدَّه للنشر أيمن فؤاد سيد ، القاهرة ـ دار الكتب المصرية ٢٠١٥م، ١٤٨، ١٤٩، ١٦٣، ١٧١، ١٧٣، ١٨٤؛ المقريزي : المواعظ والاعتبار ٢: ٢١٤، ٢١٨، ٣٠٠، ٣٠٧، ٤١٨، ٥٢٣ واتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الخلفا ، قابله بأصوله وأعدَّه للنشر أيمن فؤاد سيد ، القاهرة ـ دار الكتب المصرية ٢٠١٦م، ١: ٢٦٢، ٣٠٤، ٣١١، ٣١٦، ٣٢٠، ٣٢٥، ٣٣٨؛ ٢: ٢٤، ٧٨، ١٠٦، ١٢٤، ١٣١، ١٣٣.

والِدُه العَزيزُ باللهِ سنة ٣٨٠هـ/٩٩٠م، وعُرِفَ بـ «الجامِع الأنْوَر»[١]، فأُطْلِقَ على جامِع القاهِرَة «الجامِعُ الأزْهَر»، وبعدَ ذلك عُرِفَت جميعُ المساجِدِ الجامِعَة التي أنشأها الأئِمَّةُ الفاطِمِيُّون داخِل القاهِرَة بصِيغَةِ أفْعَلِ التَّفْضِيل: «الجامِعُ الأقْمَر» الذي بَناهُ الإمامُ الآمِرُ بأحْكامِ الله سنة ٥١٩هـ/١١٢٥م، و«الجامِعُ الأفْخَر» الذي بَناهُ الإمامُ الظَّافِرُ بأعْدَاءِ الله سنة ٥٥٣هـ/١١٥٧م[٢] (جامِع الفَكَهاني الآن بالغُورِيَّة).

كانت بِدايَةُ التَّدْرِيسِ في الجامِع في سنة ٣٦٥هـ/٩٧٥م، بعد ثَلاثِ سَنَوات من وُصولِ الإمام المُعِزِّ لدين الله إلى مِصْر، ففي صَفَرٍ من هذا العام جَلَسَ القاضي عليُّ بن النُّعْمان في الجامِع وأَمْلَى مُخْتَصَرَ أبيه في الفِقْهِ عن أهْلِ البَيْت، المعروف بـ «الاقْتِصار»[٣]، في جَمْعٍ حافِلٍ من العُلَماء والكُبَراءِ وأَثْبَتَ أسْماءَ الحاضِرين، فكانت هذه ـ كما يقولُ المَقْرِيزي ـ أوَّلَ حَلْقَةٍ للدَّرْسِ بالجامِعِ الأزْهَر[٤].

وشَهِدَت سنة ٣٧٨هـ/٩٨٨م أوَّلَ مُحاوَلَةٍ لتَرْتِيبِ دَرْسٍ مُنَظَّمٍ في جامِعِ القاهِرَة، عندما اسْتأذَنَ الوَزِيرُ يَعْقُوبُ بن كِلِّس الإمامَ العَزِيز باللهِ في تَعْيين جَماعَةٍ منَ الفُقَهاءِ بجامِعِ القاهِرَة كان عَدَدُهُم سبعةً وثلاثين فَقِيهًا كانوا يَتَحَلَّقُون كلَّ يوم جُمُعَةٍ بالجامِع بعد الصَّلاة يتكلَّمون في الفِقْه حتَّى وَقْتِ العَصْر، ورَتَّبَ لهم العَزِيزُ باللهِ أرْزاقًا وجِرايات شهريَّةً، وأقامَ لهم دارًا للسَّكَنِ بجِوار الجامِع[٥]، يقولُ

---

(١) المسبحي: الجزء الأربعون من أخبار مصر ٧٢؛ المقريزي: اتعاظ الحنفا ٢: ٢٠٨.

(٢) أيمن فؤاد سيد: الدولة الفاطمية في مصر ـ تفسيرٌ جديد، القاهرة ـ الدار المصرية اللبنانية ٢٠١٦م، ٦١٣.

(٣) نشره محمد وحيد ميرزا وصدر عن المعهد العلمي الفرنسي للدراسات العربية بدمشق سنة ١٩٥٧م.

(٤) المقريزي: المواعظ والاعتبار ٤: ٣٨٩ واتعاظ الحنفا ١: ٢٦٢.

(٥) ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر، تحقيق ونشر عبد العزيز الخويطر، الرياض=

المَقْريزيُّ: «وهي أوَّلُ مَرَّةٍ يُقامُ بها دَرْسٌ في مِصْرَ بمَعْلُومٍ جارٍ مِن قِبَلِ السُّلْطان»[١].

وقامَ جامِعُ القاهِرَةِ، أو الجامِعُ الأزْهَرُ، بدَوْرٍ مُهِمٍّ طَوالَ العَصْرِ الفاطِمِيِّ فيما يَخُصُّ الدَّعْوَةَ الفاطِمِيَّةَ الإسْماعِيلِيَّة، فقد كانت القاهِرَةُ وَقْتَئِذٍ هي مَرْكَزَ الدَّعْوَةِ الإسْماعِيلِيَّةِ في العالَمِ الإسْلامِيّ[٢]، وكان جامِعُ القاهِرَة، الجامِعُ الأزْهَرُ فيما بَعْد، مَقَرَّ داعِي الدُّعاة، على الأقَلِّ حتَّى وَفاةِ داعِي الدُّعاة المُؤَيَّد في الدِّين هِبَة الله الشِّيرازي سنة ٤٧٠هـ/١٠٧٧م[٣]. وكان الإمامُ الفاطِمِيُّ يُلْقِي فيه خُطْبَةَ الجُمُعَةِ الثَّانِيَةِ في شهرِ رَمَضان[٤]، كما كانت تُعْقَدُ فيه «مَجالِسُ الدَّعْوَةِ (الحِكْمَة)» التي كان يتولَّاها داعِي الدُّعاةِ الفاطِمِيّ[٥]. يقولُ المُسَبِّحِيّ: «وكان الدَّاعِي يُواصِلُ الجُلُوسَ بالقَصْرِ لقِراءَة ما يُقْرأ على الأوْلِياء والدَّعاوَى المُتَّصِلَة، فكان يُفرِدُ للأوْلِياء مَجْلِسًا وللخاصَّةِ وشُيُوخِ الدَّوْلَة ومن يَخْتَصُّ بالقُصُورِ من الخَدَمِ وغيرهم مَجْلِسًا، ولعَوامِّ النَّاسِ وللطَّارِئِين على البَلَدِ مَجْلِسًا، وللنِّساءِ في جامِعِ القاهِرَة ـ المعروف بالجامِعِ الأزْهَر ـ مَجْلِسًا وللحُرَمِ وخَواصِّ نِساءِ القُصُورِ مَجْلِسًا.

وكان يَعْمِلُ المَجالِسَ في دارِه حتى يُنْفِذَها إلى مَنْ يَخْتَصُّ بخِدْمَةِ الدَّوْلَة، وتُتَّخَذُ لهذه المَجالِس كُتُبًا يُبَيِّضونَها بعد عَرْضِها على الخَلِيفَة، وكان يُقْبَضُ في كُلِّ

=١٩٧٦م، ٢٧٨؛ المقريزي: المواعظ والاعتبار ٤: ٩٣ و ٣٨٩.

(١) المقريزي: المواعظ والاعتبار ٤: ٩٣ و ٤٥٢.

(٢) S. STERN, «Cairo as the Centre of Isma'ili Movement», *CIHC*, pp.437-50.

(٣) ابن عبد الظاهر: الروضة البهية الزاهرة في خطط المعزية القاهرة، حقَّقَه وقَدَّمَ له وعَلَّقَ عليه أيمن فؤاد سيد، بيروت ـ أوراق شرقية ١٩٩٦م، ٣٢؛ المقريزي: المواعظ ٢: ٥٠٧.

(٤) المصدر نفسه ٣٧ ـ ٣٨؛ المقريزي: المواعظ والاعتبار ٤: ١٢٣ وقارن القلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الإنشا، ١ ـ ١٤، القاهرة ـ دار الكتب المصرية ١٩١٢ ـ ١٩٣٨م، ٣: ٥٠٥ ـ ٥٠٨.

(٥) أيمن فؤاد سيد: الدولة الفاطمية في مصر ٥٧٤ ـ ٥٨٣.

مَجْلِس من هذه المَجالِس ما يُتَحَصَّلُ من النَّجْوَى من كُلِّ مَنْ يَدْفَع شيئًا من ذلك عَيْنًا ووَرِقًا من الرِّجالِ والنِّساء، ويَكْتُبُ أسْماءَ مَنْ يَدْفَعَ شيئًا على ما يَدْفَعُه، وكذلك في عِيدِ الفِطْر يَكْتُبُ ما يُدْفَعُ عن الفِطْرَة، ويَحْصُلُ من ذلك مالٌ جَلِيلٌ يُدْفَعُ إلى بَيْتِ المالِ شيئًا بعد شيءٍ، وكانت تُسَمَّى مَجالِسُ الدَّعْوَةِ: مَجالِسَ الحِكْمَة»[1].

ولم يكن بالجامِع أيَّةُ خِزانَةٍ للكُتُبِ في العَصْرِ الفاطِمِي، فما ذَكَرَه ابْنُ مُيَسَّر في آخِرِ حَوادِث سنة ٥١٧هـ/١١١٤م عن تَوْلِيَة أبي الفَخْر صالِح مَنْصِبَ داعِي الدُّعاة إضافَةً إلى الخَطابَة بالجامِع الأزْهَر مع خِزانَة الكُتُب[2]، لا يعني وُجودَ خِزانَةِ كُتُبٍ بالجامِع، وإنَّما يُشِيرُ إلى خِزانَةِ الكُتُبِ الفاطِمِية الشَّهِيرَة بالقَصْرِ الفاطِمِي والتي أسْهَبَ في ذِكْرِها المُؤرِّخون[3].

وحَرَصَ الإمامُ الفاطِمِي على أداء الجُمُعَة الثَّالِثَة من شَهْرِ رَمَضان في الجامِعِ الأزْهَر. فتَبَعًا لِروايَةِ ابن الطُّوَيْر كان الإمامُ بعد انْقِضاء رُكُوبِ أوَّلِ شهر رَمَضان يَسْتَرِيحُ في أوَّلِ جُمُعَة ويَرْكَبُ في الجُمُعَة الثَّانية إلى الجامِع الأنْوَر (جامِع الحاكِم) عند بابِ الفُتُوح شَمال القاهِرَة، ويَرْكَبُ في الجُمُعَة الثَّالِثَة إلى الجامِع الأزْهَر من القَشَّاشِين ويُؤدِّي الجُمُعَة الأخِيرَة في جامِع عَمْرو بِمِصْر الفُسْطاط في مَوْكِبٍ مَشْهودٍ وَصَفَهُ لنا ابن الطُّوَيْر وابن عبد الظَّاهِر[4].

---

(1) المسبحي: أخبار مصر ١٧١ ـ ١٧٢؛ المقريزي: المواعظ والاعتبار ٢: ٣٠٧ ـ ٣٠٨.

(2) ابن ميسر: المنتقى من أخبار مصر، قابله بأصوله وأعَدَّه للنشر أيمن فؤاد سيد، القاهرة ـ دار الكتب المصرية ٢٠١٥م، ١٢٠؛ المقريزي: اتعاظ الحنفا ٣: ١٢٦.

(3) أيمن فؤاد سيد: المرجع السابق ٥٩٤ ـ ٦٠٩، و«خزانة كتب الفاطميين، هل بقي منها شيء؟»، مجلة معهد المخطوطات العربية ١/٤٢ (١٩٩٨م)، ٧ ـ ٣٢.

(4) راجع ابن الطوير: نزهة المقلتين في أخبار الدولتين، أعاد بناءه وأعدَّه للنشر أيمن فؤاد سيِّد، القاهرة ـ دار الكتب المصرية ٢٠١٥م، ١٦٩ ـ ١٧٣؛ ابن عبد الظاهر: الروضة البهية الزاهرة ٣٧ ـ ٣٨؛=

وإذا كان هذا حالُ «جامِع القاهِرَة (الأزْهَر)» طَوالَ العَصْرِ الفاطِمِي ، فقد كان «جامِعُ عَمْرو (الجامِع العَتِيق)» بمصر الفُسْطاط ، الذي تأسَّسَ مع الفَتْحِ العَرَبي الإسْلامي لمصر ، هو مَرْكَزَ الحياة العِلْمِيَّة خِلالَ القُرُون الثَّلاثَة الأولى للإسْلام ثم أضْحَى مَرْكَزَ المُقاوَمَة السُّنِّيَّة طَوالَ العَصْرِ الفاطِمي وشارَكَتْه في ذلك مَدِينَةُ الإسْكَنْدَرِيَّة التي غَلَبَ على أهْلِها المَذْهَبُ المالِكِي . فكان جامِعُ عَمْرو منذ إنْشائِه مَرْكَزَ حَلْقاتِ العِلْم ومَجالِسِه ؛ ويُعَدُّ يَزِيدُ بن أبي حَبِيب ، المتوفَّى سنة ١٢٨هـ/ ٧٤٦ م ، أوَّلَ مَنْ أظْهَرَ العِلْمَ بمصر والحَدِيثَ في مَسائِل الحَلالِ والحَرام[١] . ويُعَدُّ اللَّيْثُ بن سَعْدٍ وعبدُ الله بن لَهِيعَة أهَمّ عُلَماء مصر للفَتْرَة التَّالِية[٢] . كما أنَّ الإمامَ محمد بن إدْرِيس الشَّافِعِي ظَلَّ يَجْلِسُ في حَلْقَتِه في جامِعِ عَمْرو كُلَّ يَوْم بعد صَلاةِ الصُّبْح منذ قُدُومِه إلى مصر ، سنة ١٩٨هـ/٨٠٣م ، وحتَّى وَفاتِه بها سنة ٢٠٤هـ/٨٠٩م[٣] . ويَذْكُرُ ابْنُ زُولاق أنَّه كان للفُقَهاءِ المالِكِيِّين في جامِعِ عَمْرو ، في سنة ٣٢٦هـ/٩٣٨م ، خَمْسُ عَشْرَة حَلْقَة ومِثْلُها للشَّافِعِيين ، بينما لم يكُن لأصْحابِ أبي حَنِيفَة سوى ثَلاثِ حَلْقات[٤] . وكان يحضر حَلْقَةَ أبي بَكْر النَّعّال ـ إمامِ المالِكِيَّة في مصر في وَقْتِه ، المتوفَّى سنة ٣٨٠هـ/٩٩٠م ـ حَشْدٌ كبيرٌ في

=المقريزي : المواعظ والاعتبار ٤: ١٢٣ ـ ١٢٦؛ أيمن فؤاد سيد : الدولة الفاطمية في مصر ٤٣٣ ـ ٤٣٩.

(١) السيوطي : حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة ، ١ ـ ٢، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، القاهرة ـ ١٩٦٧م ، ١: ٢٩٩.

(٢) ابن خلكان : وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، ١ ـ ٨، تحقيق إحسان عباس ، بيروت ـ دار الثقافة ١٩٦٩ ـ ١٩٧٢م ، ٣: ٣٨ ـ ٣٩ و ٤: ١٢٧ ـ ١٢٨؛ السيوطي : حسن المحاضرة ١: ٣٠١ و ٢: ١٤١.

(٣) ياقوت الحموي : معجم الأدباء ، ١ ـ ٢٠، نشرة أحمد فريد رفاعي ، القاهرة ـ دار المأمون ١٩٣٦ ـ ١٩٣٨م ، ١٧: ٣٠٤؛ السيوطي : حسن المحاضرة ١: ٣٠٤.

(٤) ابن زولاق تضمين عند ابن سعيد : المغرب في حلى المغرب (قسم مصر) ، حققه زكي محمد حسن وآخران ، القاهرة ـ جامعة فؤاد الأول ١٩٥٣م ، ١٧٣.

الجامِعِ العَتِيق حتَّى إنَّها كانت تَدُورُ على سَبْعَة عَشْرَ عَمُودًا في المَسْجِد[١] . وبَلَغَت حَلْقاتُ العِلْمِ في جامِعِ عَمْرو قُرْبَ نهاية القرن الرَّابِع الهجري/ العاشِر الميلادي ، كما يذكر المَقْدِسي البَشاري ، مئة وعَشْرَة مَجالِس[٢] . ويَصِفُ ناصِر خُسْرو ، في أواسِط القرن الخامِس الهجري /الحادي عَشَر الميلادي ، جامِعَ عَمْرو بأنَّه مَكانُ اجْتِماعِ سُكّانِ المَدِينة الكَبِيرَة وأنَّ المُدَرِّسِينَ والمُقْرِئين يُقِيمُونَ فيه ، ويُضِيفُ بعد ذلك أنَّه لا يَقِلُّ عَدَدُ مَنْ فيه في أي وَقْتٍ عن خَمْسَة آلاف من طُلاّبِ العِلْمِ والغُرَباء والكُتّاب الذين يُحَرِّرُونَ العُقُودَ وغيرها[٣] .

واخْتَلَفَ هذا الوَضْعُ بعدَ أنْ تَوَلَّى السُّلْطانُ النَّاصِرُ صَلاحُ الدِّين يوسُفُ بنُ أيُّوب الوَزارَة للإمام العاضِد لدين الله آخِر خُلَفاء الفاطِمِيِّين (٥٦٤ ـ ٥٦٧هـ/ ١١٦٩ ـ ١١٧١م) ، فشَرَعَ في تَغْيير الدَّوْلَة وإزالَتِها وحَجَرَ على العاضِد وأوْقَعَ بأُمَراء الدَّوْلَة وعَساكِرِها وأنْشأ بمَدِينَة مصر الفُسْطاط مَدْرَسَةً للفُقَهاء الشَّافِعِيَّة وأخْرَى للفُقَهاء المالِكِيَّة ، فمَهَّدَ بذلك لإعْلانِ انْقِلابِه السِّلْمِيّ على الدَّوْلَةِ الفاطِمِيَّة ، في المحرَّم سنة ٥٦٧هـ/١١٧١م ، الذي وَضَعَ نِهايَةً لدَوْلَتِهِم[٤] ؛ فعَزَلَ قُضاةَ مصر الشِّيعَة كُلَّهُم وفَوَّضَ القَضاءَ لقاضِي القُضَاةِ صَدْرِ الدِّين عبدِ المَلِكِ بنِ دِرْباس الماراني الهَذَباني الشَّافِعِي وجَعَلَ إليه الحُكْمَ في جميع بِلادِ مصر بَعْدَما أحْضَرَهُ من المَحَلَّة ، فعَزَلَ مَنْ كان بها من القُضَاة ولم يَسْتَنِب عنه في إقْليم مِصْر إلَّا مَنْ كان شَافِعِيّ المَذْهَب ، يقولُ المَقْريزي : «فتَظاهَرَ النَّاسُ من حينئذٍ بمَذْهَبِيّ

---

(١) السيوطي : حسن المحاضرة ١: ٤٥١.

(٢) المقدسي : أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، نشر M. J. DE GOEJE، ليدن ـ بريل ١٩٠٦م ، ٢٠٥.

(٣) ناصر خسرو : سفرنامة ، ترجمة يحيى الخشّاب ، بيروت ـ دار الكتاب الجديد ١٩٧٢م ، ١٠٢.

(٤) المقريزي : المواعظ والاعتبار ٤: ٣٩٦ واتعاظ الحنفا ٣: ٣٧٨ ـ ٣٧٩؛ أيمن فؤاد سيد : المرجع السابق ٣٠٠ ـ ٣٠٩.

مالِك والشَّافِعِي واخْتَفَى مَذْهَبُ الشِّيعَة والإسْماعِيلِيّة والإماميَّة حتّى فُقِدَ من أرْضِ مِصْر، وبَطَلَ من حينئذٍ مَجْلِسُ الدَّعْوَةِ بالجامِعِ الأزْهَر وغيره»[١]. ولم يَكْتَف النَّاصِرُ صلاحُ الدِّين بذلك فقامَ بحَمْلِ الكافَّة على عَقِيدَةِ الشَّيْخ أبي الحسن عليّ بن إسْماعيل الأشْعَرِي وشَرَطَ ذلك بأوْقافِه التي بدِيارِ مصر. يقولُ المَقْرِيزِي: «فاسْتَمَرَّ الحالُ على عَقِيدَةِ الأشْعَرِي بدِيارِ مِصْر وبِلادِ الشَّام وأرْضِ الحِجَازِ واليَمَن وبِلاد المَغْرِب .... والأمْرُ على ذلك إلى اليَوْم»[٢]. وفَوْرَ أنْ تَوَلَّى القاضي عبد المَلِك بن دِرْباس عَمِلَ بمقتضى مَذْهَبِه وأفْتَى بامْتِناعِ إقامَةِ خُطْبَتَيْنِ للجُمُعَة في بَلَدٍ واحِد ـ كما هو مَذْهَبُ الشَّافِعِي ـ فأبْطَلَ الخُطْبَةَ من الجامِعِ الأزْهَر، باعْتِبارِه رَمْزًا للدَّعْوَةِ الإسْماعِيلِيَّة، وأقَرَّها بالجامِعِ الأنْوَر (الحاكِمِي) شَمال القاهِرَة من أجْلِ أنَّه أوْسَع[٣] بالنِّسْبَة لسُكَّانِ القـاهِرة، وبجامِعِ عَمْرو بالنِّسْبَة لسُكَّانِ الفُسْطاط.

ونتيجةً لذلك تَعَطَّلَت خُطْبَةُ الجُمُعَة من الجامِعِ الأزْهَرِ قُرابَة المِئَة عام (٥٦٧ ـ ٦٦٥هـ/١١٧١ ـ ١٢٦٧م) أدَّت إلى هَجْرِ الجامِعِ وتَصَدُّعِه[٤] إلى أنْ أعادَها إليه السُّلْطانُ الظَّاهِرُ بَيْبَرْسُ سنة ٦٦٥هـ/١٢٦٧م ـ المُؤسِّسُ الحَقِيقي لدَوْلَةِ المَماليك ومُحْيِي الخِلافَةَ العَبَّاسِيَّةَ بالقاهِرَة بعد أنْ أسْقَطَها المُغُول في بَغْداد سنة ٦٥٦هـ/١٢٥٨م[٥] ـ عندما دارَ حَدِيثٌ بين الفُقَهَاءِ في جَوازِ إقامَةِ الجُمُعَةِ بالجامِعِ وما يَرَى

---

(١) المقريزي: المواعظ والاعتبار ٢: ٢٠٥، ٤: ٣٩٦، المصدر نفسه ٣: ٣٧٩ ـ ٣٨٠.

(٢) المصدر نفسه ٤: ٣٩٦ ـ ٣٩٧؛ وانظر مقدمتي لكتاب «مذاهب أهل مصر وعقائدهم إلى أن انتشر مذهب الأشعرية» للمقريزي، القاهرة ـ الدار المصرية اللبنانية ٢٠١٦م، ٢٩ ـ ٣٣.

(٣) المصدر نفسه ٤: ١٠٣.

(٤) المصدر نفسه ٤: ١٠٣؛ حتى إنَّ ابن عبد الظاهر، الذي ألَّفَ كتابه «الرَّوْضة البهية الزاهرة في خِطَط المعزية القاهرة» سنة ٦٤٧هـ/١٢٤٩م، أي قبل الإجراءات التي اتَّخَذَها الظَّاهِرُ بَيْبَرْس لإعادة الخُطْبَة للجامِع، خَصَّصَ له سطرًا واحدًا في نهاية ذكره للجوامع التي بالقاهرة والتي بدأها بذكر الجامع الأنْوَر (جامع الحاكم) الذي حَلَّ محلّ الجامع الأزْهَر طوال العَصْر الأيُّوبي. (ابن عبد الظاهر: الروضة البهية ٨٥).

(٥) راجع ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر ٩٩ ـ ١١٢، ١٤١ ـ ١٤٨؛ المقريزي: المواعظ ٣: =

العُلَماءُ في ذلك . فكُتِبَتْ فُتْيا أُخِذَت فيها خُطُوطُ العُلَماءِ بجَوازِ إقامَةِ الجُمُعَة في هذا الجامِع والْتِئامِها به ، فكَتَبَ جَماعَةٌ خُطُوطَهُم فيها . وأُعِيدَت الخُطْبَةُ وصَلاةُ الجُمُعَة إلى الجامِعِ في الثَّامِن عَشَر من رَبيعٍ الآخَر سنة ٦٦٥هـ/١٢٦٧م ، وإنِ امْتَنَعَ عن حُضُورِها السُّلْطانُ الظَّاهِرُ بَيْبَرْس وقاضي القُضاة تاجُ الدِّين بن بنت الأعَزّ[١] ؛ وأُقِيمَت صَلاةُ الجُمُعَة به واسْتَمَرَّت ، يقولُ المَقْريزيُّ : «فوَجَدَ النَّاسُ به رِفْقًا وراحَةً لقُرْبِه من الحارات البَعِيدَة من الجامِعِ الحاكِمِي»[٢] . وتَبَرَّعَ له الأميرُ عِزُّ الدِّين أَيْدَمُر الحِلِّي «بجُمْلَةٍ مستكثرةٍ من المالِ الجزيل ، واسْتَطْلَقَ له من السُّلْطانِ جملةً من المالِ وشَرَعَ في عِمارَتِه ، فعَمَّرَ الواهِي من أرْكانِه وجُدْرانِه وبَيَّضَهُ وبَلَّطَهُ وأصْلَحَ سُقُوفَه وفَرَشَهُ وكَساهُ حتَّى عادَ حَرَمًا في وَسَطِ المَدِينَة واسْتَجَدَّ به مَقْصُورَةً حَسَنَةً وأثَّرَ آثارًا صالِحَةً يُثِيبُه الله عليها»[٣] . ويُضِيفُ ابن عبد الظَّاهِر أنَّ الأميرَ بَدْرَ الدِّين بَيْلَبَك الخازِنْدار عَمِلَ فيه كذلك مَقْصُورَةً كبيرةً رَتَّبَ فيها مُدَرِّسًا وجَماعَةً من الفُقَهاء على مَذْهَبِ الإمامِ الشَّافِعي ـ وإنْ كان مَذْهَبُه حَنَفِيًّا ـ ورَتَّبَ في هذه المَقْصُورَة مُحَدِّثًا يُسْمِعُ الحَدِيثَ النَّبَوي والرَّقائِقَ وشَيْخًا لقِراءَةِ القُرْآن[٤] .

ووَقَعَت العِنايَةُ بالجامِع طَوالَ العَصْرِ المَمْلوكِيّ بعد الإهْمالِ الذي لَحِقَه في العَصْرِ الأيُّوبي ، فتَمَّ تَرْمِيمُه وصِيانَتُه أكثر من مَرَّة ، أهَمُّها ما تَمَّ في أعْقابِ الزِّلْزالِ الذي ضَرَبَ مِصْرَ والقاهِرَةَ سنة ٧٠٢هـ/١٣٠٢م وتَوَلَّى عِمارَتَه الأميرُ

= ٧٨٣ ـ ٧٨٧ وما ذكر في هامشه من مراجع ودراسات حديثة .

(١) ابن عبد الظاهر : الروض الزاهر ٢٧٧؛ المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك ، تحقيق محمد مصطفى زيادة ، القاهرة ـ لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٣٤م ، ١ : ٥٥٧.

(٢) المقريزي : المواعظ ٤ : ١٠٠ ـ ١٠٢.

(٣) ابن عبد الظاهر : الروض الزاهر ٢٧٧؛ المقريزي : المواعظ والاعتبار ٤ : ١٠١والسلوك ١ : ٥٥٦.

(٤) المصدر نفسه ٢٧٧.

سَيْفُ الدِّين سَلار بن عبد الله المَنْصوري نائِبُ السَّلْطَنَة[١] . وتوالَت عَمَلِيَّةُ تَجْديد وعِمارَة الجامِع ، فجَدَّدَ عِمارَتَه القاضي نَجْمُ الدِّين محمَّد بن حُسَيْن بن عليّ الأسْعَرْدي مُحْتَسِبُ القاهِرة سنة ٧٢٥هـ/١٣٢٥م ؛ وكذلك الطَّواشِي سَعْد الدِّين بَشير الجامَدار النَّاصِري عندما أقامَ بجِواره بخُطِّ الأبْارين ، سنة ٧٦٦هـ/ ١٣٦٦ م ، فتَتَبَّعَ جُدْرانَه وسُقُفَه بالإصْلاحِ حتَّى عادَت كأنَّها جَدِيدَةٌ وبيَّضَ الجامِعَ كُلَّهُ وبَلَّطَه[٢] .

واسْتِكْمالًا لشَكْلِ النَّمَطِ التَّعْلِيمِي الذي كان سائِدًا في العَصْرِ المَمْلُوكي ، أقِيمَت على بابِ الجامِع الغَرْبي مَدْرَسَتان : المَدْرَسَةُ الطَّيْبَرْسِيَّةُ سنة ٧٠٩هـ/ ١٣٠٩م[٣] ، والمَدْرَسَةُ الآقْبُغاوِيَّةُ سنة ٧٤٠هـ/١٣٤٠م[٤] ، ثم المَدْرَسَةُ الجَوْهَرِيَّةُ في طَرَفِه الشَّرْقِيِّ التي أنْشأَها ، في سنة ٨٤٤هـ/١٨٤٥م ، الأميرُ جَوْهَرُ القُنْقُبائيّ[٥] .

وتَرْجِعُ أقْدَمُ إشارَةٍ وَصَلَت إلينا إلى وُجُودِ «أرْوِقَةٍ» بالجامِع الأزْهَر إلى عام ٨١٨هـ/١٤١٦م ، في عَهْدِ السُّلْطانِ المُؤَيَّد شَيْخ المَحْمودي ؛ فقد كان هناك دائمًا عِدَّةٌ من الفُقَراءِ يُلازِمُونَ الإقامَةَ فيه ، وبَلَغَت عِدَّتُهُم في هذا الوَقْت ٧٥٠ رجلًا ، ما بين عَجَم وزَيالِعَة ومن أهْلِ رِيفِ مصر ومَغارِبَة ، ولكُلِّ طَائِفَةٍ رِواقٌ يُعْرَفُ بهِم . فقامَ الأمير سُودُون القاضي حاجِبُ الحُجَّابِ بإخْراجِهِم من الجامِع ،

---

(١) المقريزي : المواعظ والاعتبار ٤: ١٠٣ وما ذكر من مصادر ومراجع ؛ أبو المحاسن : المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي ، تحقيق محمد محمد أمين ، القاهرة ـ دار الكتب المصرية ١٩٩٩م ، ٦: ٥ ـ ١٣.

(٢) المصدر نفسه ٤: ١٠٣ ـ ١٠٤.

(٣) المصدر نفسه ٤: ٥٣٦ ـ ٥٣٨.

(٤) المصدر نفسه ٤: ٥٤٠ ـ ٥٤٤.

(٥) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، القاهرة ـ دار الكتب المصرية ١٩٧١م ، ١٥: ٤٨٥ ـ ٤٨٦ والمنهل الصافي ٥: ٤٢؛ السخاوي : الضوء اللامع لأهل القرن التاسع ، ١ ـ ١٢، القاهرة ـ مكتبة القدسي ١٣٥٣ ـ ١٣٥٥هـ ، ٣: ٨٣؛ ابن إياس : بدائع الزهور في وقائع الدهور ، ١ ـ ٥، تحقيق محمد مصطفى ، القاهرة ـ فيسبادن ١٩٦١ ـ ١٩٧٥م ، ٢: ٢٢٧.

ومَنَعَهم من الإقامَةِ في هذه السَّنَةِ . وعَلَّقَ المَقْريزيُّ على ذلك بأنَّه «ما كان إلَّا من أعْظَمِ الذُّنُوبِ وأكْثَرِها ضَرَرًا ، فإنَّه حَلَّ بالفُقَراءِ بَلاءٌ كبيرٌ من تَشَتُّتِ شَمْلِهِم وتَعَذُّرِ الأماكِنِ عليهم ، فسارُوا إلى القُرَى وتَبَذَّلُوا بعدَ الصِّيانَةِ ، وفُقِدَ من الجامِعِ أكثرُ ما كان فيه من تِلاوَةِ القُرْآنِ ، ودِراسَةِ العِلْمِ ، وذِكْرِ اللهِ»[1] . الأمْرُ الذي يَدُلُّ على أنَّ تَواجُدَهُم لم يكن بغَرَضِ الدَّرْسِ المُنْتَظِم وتَلَقِّي العِلْم ، وإنَّما المُجاوَرَة والاحْتِماء بالجامِعِ كمَكانٍ للإيواء والسَّكَن .

وكانت أهَمُّ العِماراتِ التي أُجْرِيَت على الجامِعِ في العَصْرِ المَمْلُوكي العِمارَةُ التي أجْراها السُّلْطانُ الأشْرَفُ قايِتْباي (٨٧٢ ـ ٩٠١هـ/١٤٧٨ ـ ١٤٩٦م) ، سنة ٨٧٣هـ/١٤٦٨م ، حيث هَدَمَ بابَ الجامِعِ الغَرْبيّ الكبير ، وهو البابُ القَدِيمُ للجامِعِ الذي كانت تَعْلُوه المَنارَةُ ، وجَدَّدَه على ما هو عليه الآن وأقامَ على يَمْنَتِه مَنارَةً رَشِيقَةً[2] .

ثُم تتابَعَت عِمارَةُ الجامِعِ في عَصرِ السُّلْطان الأشْرَف قايِتْباي ، فكان آخِرُها ما قامَ به الخَواجا مصطفى بن الخَواجا رُسْتُم ، الذي أضافَ مَقْصورَةً خَشَبِيَّةً على وَجْهِ الأرْوِقَةِ الثَّلاثَة التي تفتحُ على الصَّحْن . وتُوجَدُ لَوْحَةٌ تاريخِيَّةٌ تُشيرُ إلى ذلك جاءَ فيها :

> «أَمَرَ بتَجْدِيدِ هذا الجامِعِ سَيِّدُنا ومَوْلانا السُّلْطانُ الملكُ الأشْرَفُ قايِتْباي على يدِ الخَواجا مصطفى بن الخَواجا محمود بن الخَواجا رُسْتُم غَفَرَ اللهُ لهم بتأريخِ شهرِ رَجَب عامَ إحْدى وتِسْعِ مائةٍ»[3] .

---

(١) المقريزي : المواعظ والاعتبار ٤: ١٠٦ ـ ١٠٧ والسلوك ٤: ٣٢٢ ـ ٣٢٤.

(٢) السخاوي : الضوء اللامع ٦: ٢٠٩.

(٣) ابن إياس : بدائع الزهور ٣: ٣٠٦، ٤٣١.

ثم أضافَ السُّلْطانُ الأَشْرَفُ قانْصُوه الغُورِيُّ (٩٠٦ ـ ٩٢٢هـ/١٥٠١ ـ ١٥١٦م) إلى الجامِعِ، في سنة ٩١٥هـ/١٥١٠م، مَنارَةً متميِّزَةً ذاتَ رَأْسٍ مُزْدَوَجٍ، امتازَتْ كذلك بتَلْبِيسِ القاشانِيِّ ببَدَنِ دَوْرَتِها الثَّانِيةِ، هي آخِرُ ما أُضِيفَ إلى الجامِعِ في العَصْرِ المَمْلُوكِيّ[١].

ويَتَّضِحُ من ذلك أنَّه لم يكن للجامِعِ الأَزْهَرِ دَوْرٌ تَعْلِيمِيٌّ مُهِمٌّ في العَصْرِ المَمْلُوكي، لأنَّ هذا الدَّوْرَ كانت تقومُ به المَدارِسُ التي بَدَأت مع الأَيُّوبيين وازْدَهَرَت في ظِلِّ دَوْلَةِ سَلاطِين المَماليك، وكانت تُدَرِّسُ الفِقْهَ على المَذاهِبِ الأَرْبَعَة وعُلُومَ القرآن والحَدِيثَ واللُّغَة والنَّحْو والعَقِيدَةَ الأَشْعَرِيَّة، إضافَةً إلى بعض العُلُومِ التَّطْبِيقِيَّة مثل الرِّياضِيات والفَلَك. ولم يَمْنَع ذلك من إلْقاءِ بعض كِبارِ العُلَماءِ لدُرُوسٍ في الجامِعِ الأَزْهَر، مثل عالِمِ الاجْتِماعِ والفَقِيه المالِكِي المعْروف عبد الرَّحْمَن بن خَلْدُون عندما قَدِمَ إلى القاهِرَة في أَوَّل ذي القعدة سنة ٧٨٤هـ/ ١٣٨٢م، يقولُ: «ولمَّا دَخَلْتُها أَقَمْتُ أَيَّامًا وانْثالَ عَلَيَّ طَلَبَةُ العِلْم بها يَلْتَمِسُونَ الإفادَة مع قِلَّةِ البِضاعَة، ولم يُوسِعُوني عُذْرًا، فجَلَسْتُ للتَّدْرِيس بالجامِعِ الأَزْهَر منها»[٢]، ولكنَّها لم تكن دُرُوسًا نِظامِيَّةً مثل تلك التي كانت تَضْطَلِعُ بها المَدارِسُ بما كانت تَشْتَمِلُ عليه من خَزائِنَ للكُتُبِ وأماكِنَ لإعاشَةِ الطَّلَبَة وإقامَتِهم وجِرايات لهم وجامَكِيّات لمُدَرِّسيها تقومُ بها الأَوْقافُ المَوْقوفَة على هذه المَدارِس (مَدْرَسَة السُّلْطان حَسَن والمَدْرَسَة الظَّاهِرِيَّة الجَدِيدَة والمَدْرَسَة النَّاصِرِيَّة ومَدْرَسَة صَرْغَتْمَش وغيرها من المَدارِس التي أَتَى على ذِكْرِها المَقْريزي في«المَواعِظ والاعْتِبار»)[٣].

---

(١) ابن إياس: بدائع الزهور ٥: ٩٤.

(٢) ابن خلدون: التعريف بابن خلدون ورحلته غربًا وشرقًا، تحقيق محمد بن تاويت الطنجي، تونس ـ دار القيروان ٢٠٠٦م، ٢٥٥؛ المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك ٣/ ٢: ٤٨٠.

(٣) المقريزي: المواعظ والاعتبار ٤: ٤٥١ ـ ٦٨٩.

وأشارَ ابْنُ خَلْدُون نفسه إلى ذلك فنَجِدُه يقولُ في «المُـقَـدِّمَة»، وهو يَذْكُر تَراجُعَ دَوْرِ مَراكِز العِلْم القَدِيمَة في بَغْداد وقُرْطُبَة والقَيْرَوان والبَصْرَة والكُوفَة:

«ونحن لهذا العَهْدِ نَرَى أنَّ العِلْمَ والتَّعْلِيمَ إنَّما هو بالقـاهِرَة من بِلادِ مِصْر، لما أنَّ عُمْرانَها مُسْتَبْحِرٌ وحَضارَتَها مُسْتَحْكِمَةٌ منذ آلافٍ من السِّنِين، فاسْتَحْكَمَت فيها الصَّنائِعُ وتَفَنَّنَت، ومن جملتها تَعْلِيمُ العِلْم. وأكَّدَ ذلك فيها وحَفِظَه ما وَقَعَ لهذه العُصُورِ بها منذ مئتين من السِّنِين في دَوْلَةِ التُّرْكِ من أيَّامِ صَلاحِ الدِّين بن أيُّوب وهلم جَرًّا ... فاسْتَكْثَروا من بِناءِ المَدارِس والزَّوايا والرُّبُط ووَقَفُوا عليها الأوْقافَ المُغِلَّة... فكَثُرَت الأوْقافُ لذلك وعَظُمَت الغَلَّاتُ والفَوائِدُ وكَثُرَ طالِبُ العِلْم ومُعَلِّمُه بكَثْرَةِ جِراياتِهِم منها؛ وارْتَحَلَ إليها النَّاسُ في طَلَبِ العِلْم من العِراق والمَغْرِب، ونَفَقَت بها أسْواقُ العُلُومِ وزَخَرَت بِحارُها»[1].

وأكَّدَ ذلك في «التَّعْرِيف»، يقولُ في وَصْفِ المَماليك حُكَّامِ مِصْرَ والشَّام:

«أهْلُ هذه الدَّوْلَةِ التُّرْكِيَّة بِمِصْرَ والشَّام مَعْنِيُّون على القِدَمِ منذ عَهْدِ مَوالِيهِم مُلُوكِ بني أيُّوب بإنْشاءِ المَدارِس لتَدْرِيس العِلْم والخَوانِق لإقامَة رُسُومِ الفُقَراء في التَّخَلُّق بآدابِ الصُّوفِيَّة السَّنِيَّة في مُطارَحَة الأذْكارِ ونَوافِل الصَّلَوات، أخَذُوا ذلك عَمَّن قَبْلَهُم من الدُّوَلِ الخِلافِيَّة، فيَخْتَطُّون مَبانِيها ويَقِفُونَ الأراضي المُغِلَّة للإنْفاقِ على طَلَبَةِ العِلْم ومُتَدَرِّبي الفُقَراء... واقْتَدَى بسُنَّتِهِم في ذلك مَنْ تحت أيْدِيهِم من أهْلِ الرِّياسَة والثَّرْوَة، فكَثُرَت المَدارِسُ والخَوانِقُ بمَدِينَةِ القاهِرَة، وأصْبَحَت مَعاشًا للفُقَرَاءِ من الفُقَهاءِ والصُّوفِيَّة،

---

(١) ابن خلدون: كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر، تحقيق إبراهيم شبوح، تونس ـ دار القيروان ٢٠٠٦م، ٢: ١٨٣.

وكان ذلك من مَحاسِنِ هذه الدَّوْلَةِ التُّرْكِيَّة وآثارِها الجَمِيلَةِ الخالِدَة»[١].

وهو ما اتُّبِعَ مع ابن خَلْدُون نفسه عندما وَلَّاهُ السُّلْطانُ تَدْرِيسَ المَدْرَسَة القَمْحِيَّة بفُسْطاطِ مصر سنة ٧٨٦هـ/١٣٨٤م[٢]، وعندما وَلَّاهُ بعد ذلك تَدْرِيسَ المالِكِيَّة بالمَدْرَسَة الظَّاهِرِيَّة الجَدِيدَة بين القَصْرَيْن فور الفَراغِ من بِنائِها سنة ٨٨٨هـ/ ١٣٨٦م[٣]، وكذلك تَوْلِيَتُه وَظِيفَة تَدْرِيس الحَدِيث عند شُغُورِ هذه الوَظِيفَة بمَدْرَسَة صَرْغَتْمَش المُجاوِرَة لجامِع ابن طُولُون في سنة ٧٩١هـ/١٣٨٩م[٤].

*

* *

ولكن مع سُقُوطِ دَوْلَةِ المَماليك في مِصْرَ والشَّام ومَدِّ الدَّوْلَةِ العُثْمانِيَّة سَطْوَتَها عليها وعلى الأراضي التي أُطْلِقَ عليها فيما بعد «العَالَم العَرَبي»، سنة ٩٢٣هـ/ ١٥١٧م، تَنامَى دَوْرُ الجامِعِ الأزْهَرِ[٥] وتَرَسَّخَت مَكانَتَه كمُؤَسَّسَةٍ عِلْمِيَّةٍ مع تَراجُع دَوْرِ المَدارِسِ المَمْلوكِيَّة في ظِلِّ نِظامِ الأوْقافِ الذي تَبَنَّاهُ العُثْمانِيُّون ـ الحُكَّامُ الجُدُد ـ ابْتِداءً من عَهْدِ السُّلْطان سُلَيْمان القانُوني الذي وَقَفَ العَدِيدَ من الرِّزَقِ الأحْباسِيَّة والعَقارات على الجامِعِ الأزْهَر، الأمْرُ الذي ساعَدَ على إبْرازِ

---

(١) ابن خلدون: التعريف بابن خلدون ورحلته غربًا وشرقًا، ٢٨٦.

(٢) المصدر نفسه ٢٦٠، ٢٨٦.

(٣) المصدر نفسه ٢٩٣.

(٤) المصدر نفسه ٣٠١.

(٥) راجع عبد العزيز محمد الشناوي: «دور الأزهر في الحفاظ على الطابع العربي لمصر إبان الحكم العثماني»، أبحاث الندوة العالمية لتاريخ القاهرة ٢: ٦٦٥ ـ ٧١٥؛ عبد الجواد صابر إسماعيل: دور الأزْهَر في مصر إبان الحكم العثماني ٩٢٢ ـ ١٢١٣هـ/١٥١٧ ـ ١٧٩٨م، ماجستير بكلية اللغة العربية جامعة الأزهر ١٩٦٩م، ومجتمع علماء الأزْهَر في مصر إبان الحكم العثماني، دكتوراة بكلية اللغة العربية جامعة الأزهر ١٩٧٨م.

المَكانَة العِلْمِيَّة للجامِع[1]. يقولُ الرَّحّالَةُ التُّرْكِي أَوْلِيا شَلَبِي، الذي زارَ مصر في الفَتْرَة بين سنتي ١٠٨٣ ـ ١٠٩١هـ/١٦٧٢ ـ ١٦٨٠م، في وَصْفِ الجامِع الأَزْهَر:

«ليس في مصر جامِعٌ له ما للأَزْهَر من جَماعَة، إِذْ هو واقِعٌ في عَيْنِ فِعْلِ مصر، فهو مُزْدَحِمٌ بالنَّاسِ لَيْلًا ونَهارًا، فلا تَجِدُ فيه مَوْضِعًا للسَّجْدَة، يَجْتَمِعُ فيه اثْنا عَشَر أَلْف طالِب لَيْلَ نَهار، وتَطِنُّ أَصْواتُهُم كأَصْواتِ النَّحْلِ ممَّا يُدْهِشُ الإِنْسان، وقد انْهَمَكوا في مُباحَثات عِلْمِيَّة»[2].

وعَرَفَ الجامِعُ الأَزْهَرُ كذلك في نهاية القَرْنِ الحادي عَشَر الهجري/السَّابع عَشَر الميلادي مَنْصِبَ «شَيْخ الإِسْلام»، وهو اللَّقَبُ الذي تَحَوَّلَ بعد ذلك إلى «شَيْخ الأَزْهَر». ورَغْم أَنَّنا نَجْهَلُ التَّأْرِيخَ الدَّقِيقَ لظُهُورِ هذا اللَّقَبِ والظُّرُوفَ التي أحاطَت بنَشْأَتِه، فإِنَّه لم يَظْهَر إلى الوُجُودِ قبل نِهايَة القَرْنِ السَّابع عَشَر، وأَوَّلُ شَخْصٍ نَعْرِفُ أَنَّه سُمِّيَ «شَيْخ الإِسْلام» هو الشَّيْخ محمد بن عبد الله الخَرَشِيّ المالِكِيّ، ولا نَعْرِفُ متى تَبَوَّأَ هذا المَنْصِبَ الذي يَتِمُّ باخْتِيارِ كِبارِ العُلَماء، ونَعْرِفُ فقط أَنَّه تُوُفِّي في سنة ١١٠١هـ/١٦٩٠م[3].

---

(١) حسام محمد عبد المعطي: شيخ الجامع الأَزْهَر في العصر العثماني ٩٤٥ ـ ١٢٢٧هـ/١٥٣٨ ـ ١٨١٢م، الإسكندرية ـ مكتبة الإسكندرية ٢٠١٦م، ١٧ ـ ١٩.

(٢) أوليا شلبي: سياحتنامة سي مصر، ترجمة محمد علي عوني وعبد الوهاب عزام وأحمد السعيد سليمان ومراجعة أحمد فؤاد متولي، القاهرة ـ دار الكتب المصرية ٢٠٠٣م، ٢٧١.

(٣) الجبرتي: عجائب الآثار في التراجم والأخبار، تحقيق عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، القاهرة ـ دار الكتب المصرية ١٩٩٨م، ١: ١٢١؛ DANIEL CRECELIUS, «The Emergence of the *Shaykh* *al-Azhar* as the Pre-Eminent Religious Leader in Egypt», *CIHC*, pp.109-23؛ ومؤخَّرًا حسام محمد عبد المعطي: شيخ الجامع الأَزْهَر في العصر العثماني ٩٤٥ ـ ١٢٢٧هـ/١٥٣٨ ـ ١٨١٢م؛ وانظر كذلك حلمي النمنم: الأَزْهَر الشَّيْخ والمَشْيَخة، القاهرة ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠١٢م.=

ووَجَدَ الجامِعُ بعد ذلك عِنايَةً مُتَناهِيَةً من الوُلاةِ العُثمانِيِّين وأُدْخِلَت عليه إصْلاحاتٌ مُتَعَدِّدَةٌ، لَعَلَّ أهَمَّها العِمارَةُ التي قامَ بها، سنة ١١٦٧هـ/١٧٥٤م، الأميرُ عبدُ الرحمن كَتْخُدا، التي أَضافَت إلى مِساحَةِ الجامِعِ الأرْوِقَةَ الموجودةَ خَلْفَ المِحْرابِ الفاطِمِيِّ القديمِ، وهي الزِّيادَة التي جَدَّدَها الخِدِيو محمَّد توفيق باشا سنة ١٣٠٦هـ/١٨٨٨م. ويُوجَدُ في النِّهايَةِ القِبْلِيَّةِ لهذا الرِّواقِ بابٌ يُؤَدِّي إلى القُبَّةِ التي دُفِنَ فيها الأميرُ عبدُ الرحمن كَتْخُدا سنة ١١٩٠هـ/١٧٧٦م، وهو الذي أنْشأَ كذلك بابَ الصَّعايْدَة والمنارَةَ الموجودةَ أعْلاهُ، كما أَنشأَ الشُّرْفَةَ في الطَّرَفِ الشَّرْقي البَحْري. وجَدَّدَ كذلك واجِهَةَ المَدْرَسَةِ الطَّيْبَرْسِيَّةِ وأنشأ البابَ الغربيَّ الكبيرَ الرَّئيس للجامعِ المعروفِ الآن ببابِ المُزَيِّنِين (وهو عِبارَة عن بابَيْنْ عَظِمَيْنْ كلّ بابٍ بِمِصْراعَيْنْ)[1]، فضَمَّ بذلكَ المَدْرَسَةَ الطَّيْبَرْسِيَّةَ والمَدْرَسَةَ الآقْبُغاوِيَّةَ إلى الجامِعِ[2]؛ يقولُ الجَبَرْتي وهو يُعَدِّدُ مُنْشَآت عيد الرَّحْمَن كَتْخُدا بالقاهِرَة: «ولو لم يَكُنْ له مِنَ المآثِرِ إلاّ ما أَنْشأ بالجامِعِ الأزْهَر من الزِّيادَة والعِمارَة التي تَقْصُرُ عنها هِمَمُ المُـلُوكِ لكَفاهُ ذلك»[3]. وقد فُكَّت مَباني هذا الباب وأُعِيدَ بناؤُه سنة ١٣١٤هـ/١٨٩٦م عند تَوْسِعَة الشَّارِع الذي تُطِلُّ عليه الواجِهَةُ، ومع بِناءِ الرِّواقِ العَبَّاسِيّ الذي أمَرَ بِبنائِه الخِدِيو عَبَّاس حِلْمي الثَّاني.

*

* *

=وبلغ عدد مشايخ الأزهر منذ هذا التأريخ وحتى الآن ثمانية وأربعين شيخًا.

(١) الجبرتي: عجائب الآثار ٢: ٧.

(٢) المصدر نفسه ٢: ٦ ـ ٧؛ A. RAYMOND, «Les constructions de l'Emir Abd al-Rahman Katkhuda au Caire», *An. Isl.* XI (1972), pp. 235-51؛ علي مبارك: الخطط التوفيقية الجديدة، القاهرة ـ دار الكتب المصرية ١٩٧٠م، ٤: ٤٥ ـ ٤٦؛ حسن عبد الوهاب: تاريخ المساجد الأثرية ٥٧ ـ ٥٨.

(٣) المصدر نفسه ٢: ١٠.

وجاءَ التَّحَوُّلُ الكبيرُ في دَوْرِ الجامِعِ الأَزْهَر مع وُصُولِ الحَمْلَةِ الفِرِنْسِيَّةِ إلى مصر، سنة ١٢١٣هـ/١٧٩٨م، وانْهِزامِ قُوَّاتِ الأمير مُراد بك المملوكي وانْسِحابِ القُوَّاتِ المُدافِعَة الأُخْرَى إيمانًا منها بعُقْمِ القِتال، فتُرِكَت القاهِرَةُ تحت رَحْمَةِ الغُزاة وسادَ في أرْجائِها الاضْطِرابُ والذُّعْر. هنا بَرَزَ دَوْرٌ جَدِيدٌ للأَزْهَر، هو القِيادَة الشَّعْبِيَّة والزَّعامَة الوَطَنِيَّة، ونَجَحَ بعد التَّفاوُضِ مع الفِرِنْسِيين، في ١٣ صفر سنة ١٢١٣هـ/٢٥ يوليو سنة ١٧٩٨م، في تأليفِ «دِيـوَانٍ» يُشْرِفُ على حُكْمِ القاهِرَة وتَدْبِيرِ شُئونِها مُؤلَّفٍ من تِسْعَةِ أعْضَاء من شُيُوخ الأزْهَر على رَأسِهِم الشَّيْخُ عبد الله الشَّرقاوي شَيْخُ الجامِع آنَذاك، وتولَّى أمانَة الدِّيوَان الشَّيْخُ محمَّد المَهْدِي. وبالرَّغْم من أنَّ سُلْطَةَ هذا الدِّيوان كانت محدودةً وخاضِعَةً لتَوْجِيه المُحْتَلِّين، فإنَّ في تأليفِه على هذا النَّحْو، تَنْويهًا ظاهرًا بأهمية الجامِع الأزْهَر ومَكانَةِ عُلَمائِه في هذا الوَقْت واعْتِرافًا بزَعامَتِهِم الشَّعْبِيَّة والوَطَنِيَّة[1]. وتَشَكَّلَت داخِلَ الجامِع لَجْنَةٌ للثَّوْرَة على المَظالِم الفِرِنْسِية قادَت ثَوْرَةَ القاهِرَة الأولى (١٧٩٨م)، التي لم يجد الفِرِنْسِيُّونَ سَبِيلًا للقَضَاءِ عليها سوى احْتِلالِ الجامِعِ الأزْهَر وضَرْبِه بالقَنابِل واقْتِحامِهِم له بخُيولِهِم، ممَّا أدَّى إلى قَتْلِ الكثيرِ من النَّاس ودَفْنِ عَدَدٍ كبيرٍ منهم تحت الأنْقاض[2].

وكان للأزْهَرِ كذلك شأنٌ يذكر في مُساندَة محمَّد علي باشا(١٨٠٥ ـ ١٨٤٩م) في الوُصُولِ إلى السُّلْطَة، وتَدَخَّلَ عُلَماؤه بعَرائِضِهِم إلى السُّلْطانِ سَلِيم

---

(١) الجبرتي: عجائب الآثار ٣: ١٦ ـ ١٧، ٤٠ ـ ٤١؛ وانظر إسماعيل الخَشَّاب: التاريخ المسلسل في حوادث الزمان ووقائع الدِّيوان (١٨٠٠ ـ ١٨٠١)، تحقيق وتحليل وتعليق محمد عفيفي وأندريه ريمون، القاهرة ـ المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية ٢٠٠٣م، حول وقائع الدِّيوان الذي أنشأه القائد الفرنسي مينو MENOU في أكتوبر سنة ١٨٠٠م.

(٢) المصدر نفسه ٣: ٤١ ـ ٤٦؛ وراجع دراسة جلال محمد كشك: .. ودخلت الخيلُ الأزهر، بيروت ـ الدار العلمية ١٩٧٢م.

الثَّالِث العُثْماني (١٢٠٣ ـ ١٢٢٢هـ/١٧٨٩ ـ ١٨٠٧م) في الآسِتانَة لدَعْمِه وتأييده غير مَرَّة، وكان لمَوْقِفِهِم أثَرُهُ في حَشْدِ الشَّعْبِ من حَوْلِه وتَوْطِيدِ مَرْكَزِه بالتَّعاوُنِ مع نَقِيبِ الأَشْرَاف الزَّعِيم الوَطَنِي الكبير عُمَر مَكْرَم، وكُلِّلَت مَساعِيهُم يومئذٍ بالنَّجَاح، واشْتَرَكَ شَيْخُ الجامِع الأزْهَر، الشَّيْخُ عبد الله الشَّرْقاوي، مع السَّيِّد عُمَر مَكْرَم، نَقِيب الأشْراف، في إلْباسِ خِلْعَةِ الوِلايَة لمحمَّد علي باشا سنة ١٢٢٠هـ/١٨٠٥م[١]. ولَبِثَ الأزْهَرُ بعد ذلك محتفظًا بمَكانَتِه ونُفوذِه، وقد يَتضاءَل هذا النُّفُوذُ أحْيانًا تحت ضَغْطِ سُلْطانِ الطُّغْيانِ السِّياسي، ولكنَّه يبقى كامِنًا يبدو عند أوَّلِ فُرْصَة.

وابْتِداءً من عَصْرِ الخِدِيو إسْماعيل باشا (١٨٦٣ ـ ١٨٧٩م) أخَذَ الأزْهَرُ يَتأثَّرُ بالتَّغْييرات الحَدِيثَة والنَّقْلَة الحَضارِيَّة التي قادَها إسْماعيلُ باشا، وساهَمَ كذلك في إذْكاءِ هذه الرُّوح الجَدِيدَة وفي مُضاعَفَة وَعْي الأزْهَر وطُمُوحِه مَقْدِمُ المُصْلِح الكبير السَّيِّد جَمال الدِّين الأفْغاني(١٨٣٨ ـ ١٨٩٧م) إلى مصر واتِّصالِه بالأزْهَر وطُلَّابِه (بين سنتي ١٨٧١ ـ ١٨٧٩م)[٢]. وكان من أكبر المتأثِّرين به مُفْتِي الدِّيارِ المصرية بعد ذلك الإمامُ محمَّد عَبْدُه (١٨٤٩ ـ ١٩٠٥م) والذي نَجِدُه لا يَتَرَدَّدُ في التَّحَوُّلِ من مُناصِرٍ لأراءِ المَدْرَسَةِ الأشْعَرِيَّة في كِتابِ «العَقِيدَة المُحَمَّدِيَّة» إلى مُناصِرٍ للمُعْتَزِلَة والعَقْلِيين في كِتاب «الحاشِيَة على شَرْحِ العَقائِد النَّسَفِيَّة»، ويُقْبِلُ في الوَقْتِ نفسه على دِراسَةِ العُلُومِ المُخْتَلِفَة التي خَلَت منها مَناهِجُ التَّدْرِيس في الأزْهَر، كالفَلْسَفَة وعِلمِ الكَلام والرِّياضِيّات والأخْلاق والسِّياسَة[٣].

---

(١) الجبرتي: عجائب الآثار ٣: ٥٢١ ـ ٥٢٢.

(٢) انظر J. JOMIER, *EI*[2] art. *Djamal al-Din al-Afghani* II, pp. 427-30.

(٣) انظر عثمان أمين: «جمال الدِّين الأفْغاني في القاهرة»، أبحاث الندوة العالمية لتاريخ القاهرة، القاهرة ١٩٧١م، ٨٣٣ ـ ٨٤٧.

وقامَ الشَّيْخُ محمَّد عَبده ، إضافَةً إلى ذلك ، بدَعْوَةِ الخِديو عَبَّاس حِلْمِي الثَّاني (١٨٩٢ ـ ١٩١٤م ، سنة ١٨٩٦م ، لإنْشاءِ مَكْتَبَةٍ للأزْهَرِ تُجْمَعُ بها الكُتُبُ الخَطِّيَّةُ المُتنائِرَةُ في أرْوِقَةِ الجامِع والتي تكوَّن أغْلَبُها خِلالَ العَصْرِ العُثْماني ، واخْتِيرَ مَوْضِعًا لها المَدْرَسَةُ الآقْبُغاوِيَّةُ على يَسارِ الدَّاخِلِ من بابِ المُزَيِّنِين ؛ ثم أُهْدِيَت إليها ـ بعد ذلك ـ مَكْتباتُ شُيوخٍ أزْهَرِيين وعُلَماء آخَرِين واحْتَفَظَت بأسْمائِهم كان أوَّلُها مَكْتَبَة الشَّيْخ حَسُونَة النَّواوي شَيْخ الأزْهَر الذي افْتُتِحَت في عَهْدِه المَكْتَبَة ثم مَكْتَبَة سُلَيْمان باشا أباظَة الذي أهْدَى وَرَثَتُهُ المَكْتَبَة إلى الجامِع[1] .

وتَلَقَّى الأزْهَرُ ، باعْتِبارِه مَرْكَزَ التَّعْلِيم العالي الإسْلامي في مصر ، بعد ذَهابِ دَوْرِ المَدارِس التي ازْدَهَرَت في العَصْرِ المَمْلُوكي ، تَغْييرات مُهِمَّة منذ أواخِر القرن التَّاسِع عَشَر . فمع بِدايَة الإدارَةِ الحُكومِيَّةِ الحَدِيثَةِ في مصر أصْبَحَ مَجالُ التَّعْلِيم تَدْرِيجِيًّا هَدَفًا مُشْتَرَكًا لسِياسات الدَّوْلَة ، فأنْشِئَت مُؤسَّساتٌ تَعْليمِيَّةٌ جديدةٌ ووُضِعَت المؤسَّساتُ القَديمَةُ تحت نَظَرِ الدَّوْلَة ، فأصبح انْفِرادُ الأزْهَر بالتَّعْلِيم في مصر يُواجِه تَحَدِّيَات فَرَضَتْها المُؤسَّساتُ التَّعْلِيمِيةُ الجديدة ، مثل دار العُلُوم (١٨٧٢م) وبعد ذلك مع تأسِيسِ مَدْرَسَةِ القَضَاء الشَّرْعِي (١٩٠٧م)[2] ، وقبل ذلك مع تأسِيس محمد علي باشا لمَدْرَسة الطِّبّ والمُهَنْدِسْخاناه ومَدْرَسَة الألْسُن[3] .

وعَرَفَ الأزْهَرُ إصْلاحاتَ جَوْهَرِيَّة مع قَوانِين تَنْظِيمِه الصَّادِرَة في عامَيّ ١٨٩٦ و١٩١١م التي أوْجَدَت بِيروقْراطِيَّةً مركزيةً ترأسَّها شَيْخُ الجامِع الأزْهَر باعْتِبارِه

---

(١) راجع محمد أبا الوفا المراغي : «المخطوطات في المكتبة الأزهرية» ، مجلة معهد المخطوطات العربية ١ (١٩٥٥) ، ٥٦ ـ ٦١.

(٢) راجع ، عبد المتعال الصعيدي : تاريخ الإصلاح في الأزهر ـ صفحات من الجهاد في الإصلاح ، القاهرة ١٩٥١م ، ٨٦.

(٣) راجع لمزيد من التَّفْصِيل أحمد عزت عبد الكريم : تاريخ التعليم في عصر محمد علي ، القاهرة ـ دار النهضة المصرية ١٩٣٨م .

مُشْرِفًا على هَيْئَةٍ إداريةٍ تُدِيرُ شُئونَ التَّعْلِيم والطَّلَبَة والاخْتِبارات إضافَةً إلى اخْتِيار الهيئة التَّعْلِيمية والإدارية . وتأسَّسَت «هَيْئَةُ كِبارِ العُلَماء» ، في عام ١٩١١م ، من ثلاثين من كِبارِ المَشائِخ ليُحاضِرُوا الطَّلَبَة وليُرْجَع إليهم في كلِّ ما يتعلَّقُ بالأُمُورِ الدِّينِيَّةِ والشَّرْعِيَّة ، وأُنْشِئَت معاهِدُ دينِيَّة جديدة تابِعَة للأزْهَر في عَواصِم بعض المُدِيرِيَّات وأُضِيفَت مَوادّ دِراسِيَّة جَدِيدَة إلى مَناهِجِ الأزْهَر مثل التَّارِيخ والجُغْرافيا والرِّياضَة ومَبادىء الكِيمْياء والطَّبِيعَة ، وأصبحَ مَنْهَجُ الدِّراسَةِ منذ هذا التَّأرِيخ محدَّدًا بتدرُّجٍ واضِحٍ وجَدِيدٍ أصبح الطَّالِبُ يَجْتازُ بمُقْتَضاه بعد ثَمانِ سنوات اخْتِبارَ «الأهْلِيَّة» ، وبعد أرْبَعِ سنوات أخْرَى اخْتِبارَ «العالَمِيَّة» التي تؤهِّلُه للتَّدْرِيس[١] .

وأثَّرَ في الحَياةِ العامَّةِ في التَّارِيخِ المصري في مَطْلَعِ القَرْن العِشْرين طائِفَةٌ من نَوابِغ المُفكِّرين والصَّحَفِيين والأُدَباء الذين دَرَسُوا في مَرْحَلَةٍ من حَياتِهِم في الجامِع الأزْهَر ، وكان لهم أثَرٌ يُذْكَرُ في تَوْجِيه الرَّأي العام وإيقاظِ الشُّعُورِ الوَطَني الذي تَجَلَّى خِلالَ ثورة سنة ١٩١٩م حيث كان الجامِعُ الأزْهَر ، صَحْنُه وأرْوِقَتُه ، ساحَةً من أهَمِّ ساحاتها .

وكانت التَّطَوُّراتُ التي شَهِدَها العالَمُ في العَقْدِ الثَّاني من القرن العِشْرين نتيجةً لانْدِلاعِ الحَرْبِ العالَمِيَّة الأولى (١٩١٤ ـ ١٩١٨م) ، وعلى الأخَصِّ تَوابِعُها على الدَّوْلَة العُثْمانِيَّة والتي أنْهَت عَلاقَة مصر بالدَّوْلَةِ العُثْمانِيَّة مع إعْلانِ الحِمايَة البريطانية عليها سنة ١٩١٤م ، وكذلك الإجْراءَات التي اتَّخَذَها بعد ذلك مصْطَفى كمال (أتاتورك) من إعْلانِ الجُمْهُورِيّة وإلْغاء السَّلْطَنَة العُثْمانِيّة في ٢٩ أكتوبر سنة ١٩٢٣م ثم إلْغاءِ «الخِلافَةِ الإسْلامِيَّة»و مَنْصِبِ «شَيْخ الإسْلام» في إسْتانْبول في ٥ مارس سنة ١٩٢٤م[٢] ، إيذانًا ببَدْء عَهْدٍ جَديدٍ لمصْر والأزْهَر في

---

(١) راجع ، عبد المتعال الصعيدي : المرجع السابق ١٠٣ ـ ١٣٧.

(٢) انظر أكرم كيدو : مؤسسة شيخ الإسلام في الدولة العثمانية ، ترجمة هاشم الأيوبي ، طرابلس =

مُحِيطِ العالَمِ الإسْلامِي . هنا دَخَلَ الأزْهَرُ في مَرْحَلَةٍ جَدِيدَةٍ من تاريخه نَتَجَ عنها أنْ أصبح يُمَثِّلُ بالتَّدْرِيج المَرْجِعِيَّةَ الدِّينِيَّةَ الأولى للعالَم الإسْلامي السُّنِّي ، وأوْكَلَ إليه المَلِكُ فؤاد الأوَّل (١٩١٧ ـ ١٩٣٦م) ، في سنة ١٩٢٥م ، تَنْظِيمَ مؤتمرٍ دَوْلي عن الخِلافَة ، وهي المَرَّة الأولى التي يُعْهَدُ فيها إلى الأزْهَرِ القِيامَ بدَوْرٍ مُساعِدٍ في السِّياسَةِ الخارِجِية المصرية[1] ؛ ولهذا السَّبَبِ اتَّخَذَ الأزْهَرُ مَوْقِفًا مُعادِيًا من الشَّيْخ علي عبد الرَّازِق (١٨٨٨ ـ ١٩٦٦م) الذي أصْدَرَ في نفس هذا العام كِتابَه «الإسْلام وأصُول الحُكْم» يَدْحَضُ فيه فِكْرَةَ الخِلافَة ويُثْبِتُ أنَّها ليست من أصُولِ الإسْلام مُشِيرًا إلى الظُّرُوفِ التَّارِيخِية المختلفة التي صاحَبَت وُصُولَ الخُلَفاء الأرْبَعَة الرَّاشِدِين ثم الخُلَفاء الأُمَوِيين وبعدهُم الخُلَفاء العَبّاسيين ـ سواءً في العِراق أو في مصر ـ وحتَّى السَّلاطِين (الخُلَفاء) العُثْمانِيين ، مُعارِضًا بذلك الفِكْرَةَ التي بدأ يدعو إليها الأزْهَر[2] .

وكرَدِّ فِعْلٍ على سُقُوطِ الخِلافَةِ الإسْلامِيَّة في إسْتانْبول بدأت الجَماعاتُ الإسْلامِيَّةُ الرَّادِيكالِيّة في الظُّهُور في مصر مُمَثَّلَةً في جَماعَة «الإخْوان المُسْلِمِين» ،

=جروس برس ١٩٩٢م ؛ أحمد صدقي شقيرات : تاريخ مؤسسة شيوخ الإسلام في العهد العثماني ، ٨٢٨ ـ ١٣٤١هـ/١٤٢٥ ـ ١٩٢٢م ، ١ ـ ٢، إربد ـ دار الكندي للنشر والتوزيع ٢٠٠٢م ومعجم شيوخ الإسلام في العهد العثماني ٨٢٨ ـ ١٣٤١هـ/١٤٢٥ ـ ١٩٢٢م ، ١ ـ ٢، إربد ـ عالم الكتب الحديث ٢٠١٤م . وكان آخر شَيْخٍ للإسلام الشيخ مصطفى صبري (١٨٦٩ ـ ١٩٥٤م) الذي فَرَّ سنة ١٩٢٢م مع وكيل المشيخة الشيخ محمد زاهِد الكَوْثَري (١٨٧٩ ـ ١٩٥٢م) إلى مصر وتوفّيا ودُفِنَا بها ، رَحِمَهُما الله .

(1) JACOB SKOVFGAARD-PETERSEN, *EI*[3] art. *al-Azhar* (2007), III, p.186 .

(2) وأصدر عبد الرزّاق السَّنْهوري في سنة ١٩٢٧م رسالته بعنوان ABD AL-RAZZAQ AL-SANHOURY, *Le califat son évolution vers une société des Nations Orientales,* Paris 1927؛ نقلها إلى العربية بشيء من التصَرُّف توفيق محمد الشَّاوي ونادية عبد الرزَّاق السَّنْهوري بعنوان : فِقْه الخِلافَة وتَطَوُّرها لتصبح عُصْبَة أُمَم شرقية ، القاهرة ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٩م . وهي دراسة بحث فيها عن كيفية إيجاد بديلٍ عصري للخِلافة .

سنة ١٩٢٨م، وبعض التَّيّارات السَّلَفِيَّة التي مثَّلَها بعضُ الشَّوام مثل: السَّيِّد محمَّد رَشِيد رِضَـا والسَّيِّد مُحِبّ الدِّين الخَطِيب وبعضُ المُنْتَمِين مَذْهَبِيًّا إلى الدَّوْلَة السُّعُودِيَّة الثَّانِية، التي تأسَّسَت سنة ١٩٣٢م، مثل جَماعَة أنْصَار السُّنَّة؛ وهي تَيَّاراتٌ لم يَكُن لها تَواجُدٌ واضِحٌ قبل هذا التَّأْرِيخ.

وجاءَ تأسِيسُ الجامِعَة المصرية الرَّسْمِيَّة (جامِعَة فؤاد الأوَّل وجامِعَة القاهِرَة فيما بعد)، سنة ١٩٢٥م، ليُوجِدَ مُنافِسًا حَقِيقِيًّا للتَّعْلِيم الدِّيني التَّقْلِيدي الذي كان يُمَثِّلُه الأزْهَرُ حتَّى ذلك الوَقْت[1]، بما أنَّها اخْتَصَّت بتَدْرِيسِ العُلُومِ الحَدِيثَة وأصبح خِرِّيجُوها يُمَثِّلُونَ دَعْمًا قويًّا للبِناء الإداري للدَّوْلَة في تَنْظِيمِه الحَدِيث. وكانت المشكلةُ الدَّائِمَةُ التي واجَهَت الأزْهَر هي ارْتِفاعَ مُعَدَّلِ رُسُوبِ الطَّلَبَة المُتَقَدِّمِين إليه في الاخْتِبارات والذين كانوا يُمَثِّلُون طَبَقَةً أدْنَى من نُظَرائِهِم المُتَقَدِّمين لِنِظامِ التَّعْلِيم الجَدِيد. فرَغْمَ أنَّ عَدَدَ الطَّلَبَة المُسَجَّلِين به بَلَغَ حوالي عشرة آلاف طالِب، في الفَتْرَة بين عامَيّ ١٨٩٩ و١٩٢٥م، فلم يَحْصُل منهم على «العالَمِيَّة» إلاّ عَدَدٌ قليلٌ، من ١١ عالمية سنة ١٨٩٩م إلى ٣٢٤ عالمية في سنة ١٩٢٥م! وبالرَّغْم من قِلَّةِ عَدَدِ الخرِّيجين فإنَّ فُرَصَ العَمَلِ المُتاحَة أمامَهُم كانت قليلةً لأنَّ خِرِّيجي الأزْهَر كان عليهم مُنافَسَة خِرِّيجي الكُلِّيّات الجامِعِيَّة الحَدِيثَة (الآداب والحُقُوق ودار العُلُوم والمُعَلِّمِين العُلْيا)، ولم يَجِدوا أمامَهُم سوى وَظائِفَ الأئِمَّة والمُؤَذِّنين الأقَلّ عائِدًا.

ومن أجْلِ رَفْعِ مستوى خِرِّيجي الأزْهَر في سُوقِ العَمَل جاءَ قانُونُ إعادَة تَنْظِيم الأزْهَر رقم ٤٦ لسنة ١٩٣٠م، الذي أصْدَرَهُ الملكُ فؤاد الأوَّل، بإنْشاءِ كُلِّيّاتِ أُصُولِ الدِّينِ والشَّرِيعَةِ واللُّغةِ العَرَبِيَّةِ التي أُقِيمَت لها مَبانٍ على الطِّرازِ المَمْلُوكي

---

[1] راجع رؤوف عباس حامد: تاريخ جامعة القاهرة، القاهرة ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٩م.

الحَدِيث New Mamluk Style في الجِهَةِ الشَّرْقِيَّةِ للجامعِ افْتُتِحَت سنة ١٩٣٣م[١]، لتَمْنَحَ ثَلاثَ دَرَجات عِلْمِيَّة تُعادِلُ الدَّرَجات التي تَمْنَحُها الجامِعَةُ المِصْرِيَّة، كما أَصْدَرَ الأَزْهَرُ، في سنة ١٩٣٥م، مجلةً دَوْرِيَّةً أكاديمِيَّةً بعنوان «مِجَلَّة الأَزْهَـر»[٢]. وصَدَرَ بعد ذلك القانُونُ رقم ٢٦ لسنة ١٩٣٦م بإعادَة تَنْظِيم الجامِع الأَزْهَر، والذي ظَلَّ مَعْمولًا به حتى صُدُورِ القانون رقم ١٠٣ لسنة ١٩٦١م[٣].

*

* *

وعَرَفَ الأَزْهَرُ تَحَوُّلًا جَديدًا مع النِّظامِ الذي أَوْجَدَتْهُ حَرَكَةُ الضُّبّاطِ الأَحْرار، في يولية سنة ١٩٥٢م، وقامَ تَحالُفٌ بين جَمال عبد النّاصِر ـ قائِد النِّظام الجَدِيد (١٩٥٤ ـ ١٩٧٠م) ـ وشَيْخِ الأَزْهَر آنَذاك الشَّيْخ محمود شَلْتوت (١٩٥٨ ـ ١٩٦٣م)، الذي عَمِلَ على تَحْدِيثِ مَناهِجَ الدِّراسَة وتَبَنِّي دَوْرٍ خِدَمِي عام للأَزْهَر داخِلِيًّا وخارِجِيًّا، وقامَ الأَزْهَرُ في عَهْدِه بدَوْرٍ مُهِمٍّ في التَّقْرِيبِ بين المَذاهِب الإِسْلامية. وجاءَ قانُونُ إِصْلاحِ الأَزْهَر رقم ١٠٣ لسنة ١٩٦١م ليَدْمِجَ الأَزْهَرَ لأَوَّلِ مَرَّةٍ في مَجالات أَوْسَع من التَّعْلِيم العالي بغَرَضِ إِنْتاجِ باحِثِين حَداثِيِّين ذَوِي مَعْرِفَةٍ بالعُلُوم العَصْرِيَّة قادِرِين على خِدْمَةِ العالَم الإِسلامي أمامَ التَّحَدِّيات العالَمِيَّة الجَدِيدَة، وإِنْ لم يَتَحَقَّق هذا الهَدَفُ على الوَجْه الذي كان يُرْجَى منه. فأَدْخَلَت

---

(١) راجع عبد المتعال الصعيدي: المرجع السابق ١٢٢ ـ ١٢٧؛ وانظر اعتراض محمد البهي على هذا الفصل بين الكليات الذي جعل طالب اللغة العربية لا يعرف في الفقه وطالب أصول الدين لا يعرف قواعد اللغة في مقاله: «حاضر الأزهر بعد أمسه»، أبحاث الندوة العالمية لتاريخ القاهرة ٣: ٩٩٩ ـ ١٠٢٢.

(٢) JACOB SKOVFGAARD-PETERSEN, *EI*[3] art. *al-Azhar* (2007), III, p.186.

(٣) راجع عن هذه القوانين، محمد علي حلة: الأزهر في الأرشيف المصري ـ وثائق من القرنين التاسع عشر والعشرين، القاهرة ـ دار الكتب المصرية ٢٠١٥م.

إصْلاحاتُ هذا القانُون إلى الأزْهَرِ للمَرَّةِ الأولى العُلُومَ غير الشَّرْعِيَّة (الطِّبّ والهَنْدَسَة والزِّراعَة والاقْتِصاد والتَّرْبِية .... إلخ) في حَرَمِ جامِعِي جَدِيدٍ بمَدِينَةِ نَصْر وإلى القُرْبِ منه حَرَمٌ آخَرٌ خاصٌّ بالبَنات للمَرَّة الأولى كذلك ؛ في الوَقْتِ نفسه الذي تَوَسَّعَ فيه الأزْهَرُ في اسْتِقْبالِ طُلاَّبٍ من مختلفِ البِلادِ الإسْلامية (من أفْرِيقْيا وآسْيا وأوروبا الشَّرْقِيَّة والبَلْقان)جاءَت الغالِبِيَّةُ العُظْمَى منهم لدِراسَةِ العُلُومِ الشَّرْعِيَّة ، وأنْشأ مَدِينَةً خاصَّةً لهؤلاء المَبْعُوثِين لاسْتيعابِهِم وإعاشَتِهِم باسْم «المَدِينَة السَّكَنِيَّة لطَلَبَةِ البُعُوثِ الإسْلامِيَّة» ، تَقَعُ الآن بطريق صَلاح سالِم أسْفَل كوبري الفِرْدَوْس[1] .

وابتداءً من هذه الفترة ومع الدَّوْرِ المُتنامي لمصر في أفْرِيقْيا وآسيا أصبح الأزْهَرُ يُمَثِّلُ المَرْجِعِيَّةَ الرَّئيسَة للإسْلام السُّنِّي لدى مُسْلِمي هذه الدُّوَل إضافَةً إلى دُوَلِ البَلْقان ، التي احْتَلَّ لديها الأزْهَرُ المَكانَةَ التي كانت من قبل للدَّوْلَةِ العُثْمانية قبل الانْقِلابِ الكمالي سنة ١٩٢٣م ، وأصبح الكثيرُ من حُكّامِ هذه الدُّوَلِ أو الذين تَوَلَّوا مَراكِزَ مُهِمَّة فيها من خِرِّيجِي الأزْهَر .

وكان من نَتائِج هذا القانون أنْ فَقَدَ الأزْهَرُ الأوْقافَ الخاصَّة به وأصبحت مِيزانِيَّتُه جزءً من المُوازَنَة العامَّة للدَّوْلَة ، فتَحَوَّلَ عُلَماؤه بالتالي إلى مُوَظَّفِينَ في الجِهازِ الإداري للدَّوْلَة ، كما أصبح هناك وَزِيرٌ مسئولٌ عن شُئونِ الأزْهَر . وأصبح شَيْخُ الأزْهَر يرأس المَجْلِسَ الأعْلَى للأزْهَر الذي يَشْمَل ، إضافَةً إلى مَشْيَخَة الأزْهَر ، جامِعَة الأزْهَر ومَجْمَع البُحوث الإسْلامِيّة ـ الذي حَلَّ مَحَلّ هَيْئة كِبار العُلَماء ـ وإدارة المَعاهِد الأزْهَرِيَّة[2] .

---

[1] وُضِعَ مُؤَخَّرًا حَجَرُ أساسِ مَدينَةٍ جَديدَةٍ لتَسْتَوْعِبَ الأعْدادَ المُتَزايدَة من المَبْعوثِينَ إلى الأزْهَرفي التَّجَمُّع الخامس بالقاهرة الجديدة .

[2] انظر لتفاصيل أكثر حول دَوْر الأزْهَر وشيوخه وعلاقتهما بالسلطة خلال هذه الفترة دراسة حلمي النمنم : الأزهر الشيخ والمشيخة ، القاهرة ٢٠١٢م .

وفي الوَقْتِ نفسه، وابتداءً من سَبْعينات القَرْنِ العِشْرين، نتيجةً للتَّطَوُّرات السِّياسِيَّة التي عَرَفَتْها مصروالتي أدَّت إلى بُزُوغِ نَجْمِ التَّيارات الإسْلامية في مُواجَهَة التَّيارات اليَسارِيَّة والنَّاصِرِيَّة، إضافَةً إلى التَّأثِيرات النَّاتِجَة عن احْتِكاكِ العَدِيدِ من دارِسِي الأزْهَر بالأفْكارِ السَّلَفِيَّة بعد انْتِقال الكثير منهم للعَمَلِ في الجامِعات الإسْلامية التي بَدَأت في الظُّهُور في المَمْلَكَة العَرَبِيَّة السُّعُودِيَّة. قادَ ذلك إلى تَحَدٍّ جديدٍ أمامَ الأزْهَر في كَيْفِيَّة مُواجَهَة هذه التَّيارات واحْتِفاظِه بوَسَطِيَّتِه المعروفَة عنه.

*
* *

ثم كانت الانْتِفاضَةُ الشَّعْبِيَّةُ للمِصْرِيين في الخامِس والعِشْرين من يناير سنة ٢٠١١م إيذانًا بِبِدايَةِ عَهْدٍ جديد، ولكن مع تَطَوُّرِ الأحْداثِ وَجَدَ الإسْلامُ السِّياسِي له مُتَنَفَّسًا وبَدَأت الجَماعاتُ الأصُولِيَّةُ الرَّادِيكالِيَّةُ في الظُّهُورِ على السَّطْحِ داعِيَةً إلى الأفْكارِ الأكثر جُمُودًا وانْغِلاقًا، فكان على الأزْهَرِ أنْ يَتَصَدَّى لذلك مُوَضِّحًا صُورَةَ الإسْلام الصَّحِيح، وأنَّه مِلْكٌ للأمَّة كلِّها وأنَّه يَقِفُ على مَسافَةٍ واحِدَةٍ من الجَمِيع ولا يَنْطَوِي تحت أيِّ تَيَّارٍ أو فِكْرٍ مُعَيَّنٍ، وأنَّه مَصدَرٌ للفِكْر الإسْلامي الذي يعتمدُ على القُرْآنِ والسُّنَّةِ الصَّحِيحَة وما اتَّفَقَ عليه عُلَماءُ الأمَّة، وأنَّه المُعَبِّرُ الأمِينُ عن المَذاهِبِ الفِكْرية والفِقْهِيَّة في المَدْرَسَةِ الإسْلامية. فكان أنْ دَعا الأزْهَرُ، بقِيادَة شَيْخِه الحالي العالِم الجَلِيل فضيلة **الدكتور أحْمَد الطَّيِّب**، إلى عَدَدٍ من اللِّقاءات تَجْمَعُ كَوْكَبَةً من المُثَقَّفِين والعُلَماءِ المصريين وعُلَماءِ الأزْهَرِ على اخْتِلافِ انْتِماءاتهم الفِكْرِيَّة والدِّينية، ليَتَدارَسُوا في عَدَدٍ من الاجْتِماعات مُقْتَضَيات اللَّحْظَة التَّارِيخية الفارِقَة التي تمرُّ بها مصر بعد أحْداثِ الخامِس والعشرين من يناير وأهميَّتها في تَوْجِيهِ مُسْتَقْبَلِ مصر نحو غاياتِه النَّبِيلَة والمُطالَبَة بحُقُوقِ شَعْبِها في الحُرِّيَّة والكَرامَة والمُساواة والعَدالَة الاجْتِماعِية. ونَتَجَ

عن هذه الاجْتِماعات المكثَّفة أربعةُ وَثائِقَ مُهِمَّةٌ صادِرَةٌ عن الأَزْهَر[1]:

* وَثيقَةُ الأَزْهَر حَوْلَ مُسْتَقْبَلِ مصر.
* وَثيقَةُ الرَّبيعِ العَرَبي ومُساندَةِ حَرَكاتِ التَّحَرُّرِ العَرَبي.
* بيَانُ الأَزْهَر والمُثقَّفِين عن مَنْظُومَة الحُرِّيات الأساسِية.
* وَثيقَةُ الأَزْهَرِ لحُقُوقِ المَرْأَة.

وتَواكَبَ ذلك مع نَشاطٍ على المستوى الدَّوْلي، في العامين الأَخيرين على الأَخَصّ، في أَعْقابِ ثَوْرَةِ الشَّعْبِ في ٣٠ يونية سنة ٢٠١٣م التي وَضَعَت نِهايَةً لسَنَةِ حُكْمِ الإخْوان (يولية ٢٠١٢ ـ يونية ٢٠١٣م)؛ فأَصْبَحَ الأَزْهَرُ مَقْصِدًا لمُلُوكِ ورُؤَساء الدُّوَلِ الذين يَزُورُونَ مصر، كما قامَ شَيْخُ الأَزْهَر ومُعاوِنُوه بزيارات مُهِمَّة إلى العَديدِ من الدُّوَلِ العَرَبيَّة والأَفْرِيقِيَّة والآسْيَوِيَّة والأُورُوبية ومَقَرّ الجَمْعِيّة العامَّة للأُمَم المُتَّحِدَة بنيويورك اسْتَقْبَلَه خِلالَها رُؤساءُ هذه الدُّوَل، وقامَ كذلك بزِيارَةٍ لدَوْلَةِ الفاتِيكان اسْتَقْبَلَه خِلالَها بابا الفاتِيكان ولمَجْمَع الكَنائِس العالَمي بجِنِيف، كما شارَكَ الأَزْهَر بوَفْدٍ رَفِيعٍ تَرَأَّسَه شَيْخُ الأَزْهَر في مُؤْتَمَر أَهْلِ السُّنَّة والجَماعَة الذي اسْتَضافَتْه مَدِينَةُ جرُوزْني بجمهورية الشِّيشَان؛ كلّ ذلك من أَجْلِ فَتْحِ آفاق للتَّعاوُن في المَجالات المُتَّفِقَة وتَوْضِيحِ الصُّورَةِ الحَقِيقِيَّةِ للإسْلامِ الوَسَطِي بتَقْدِيم المَبادِىء الصَّحِيحَة للإسْلام وإيضاحِ حَقِيقَتِه السَّمْحَة ونَبْذِه للإرْهابِ وجَمِيعِ أَشْكالِ العُنْفِ والتَّطَرُّف؛ وذلك في إطارِ الدَّعْوَةِ إلى «تَجْدِيد الخِطابِ الدِّيني» والتي أَرَى أَنَّ الأَوْفَقَ أَنْ تكونَ دَعْوَةً إلى «تَجْدِيد الفِكْرِ الدِّيني»، لا مُجَرَّد الخِطابِ الدِّيني، ليَتَناسَبَ مع مُتَطَلَّبات العَصْر ومُتَجَدِّداتِه والتَّحَدِّيَات التي يُواجِهُها العالَمُ الإسْلامِي.

---

[1] انظر أيمن فؤاد سيد: «وَثائِقُ الأَزْهَر وصَوْنُ الدِّين والمجتمع في الزَّمَنِ الحاضِر»، مجلة التفاهم العمانية ١٢ (٢٠١٤م).